الربوبية

تأليف

أ.د. محمد بن عبدالرحمن أبوسيف الجهني
أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة

ح
محمد عبدالرحمن الجهني ،١٤٣١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الجهني ،محمد عبدالرحمن
الربوبية. / محمد عبدالرحمن الجهني .– المدينة المنورة ، ١٤٣١هـ
..ص ؛ ..سم
ردمك: ٤-٥٦٨٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨
١-الربوبية أ.العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٣١/٧٢٦٣

رقم الإيداع: ١٤٣١/٧٢٦٣
ردمك: ٤-٥٦٨٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

فاكس (٠٤٨٤٧٣٥٢٩) بريد إلكتروني (maas٣٧٥@gmail.com)

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده لا شريك له ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع بإحسان نهجه ،

أما بعد : فان الربوبية أحد أصول الاعتقاد وركائز الإيمان وأركان التوحيد ، والإنسان في ضرورة إليها ، إلى الإيمان برب واحد خلقه وكل شيء وهو يدبره فلا يحصل له نفع إلا بخلقه وتقديره ، ولا يندفع عنه ضر إلا بخلقه وتقديره ، فتسكن نفسه وتركن إلى خالقها ومدبر أمرها وتسلم له وجهها ، بغير هذا لن يحصِّل العبد سعادة واستقراراً وطمأنينة .

وقد سرت منذ أواخر القرن السابع عشر الميلادي في بلاد الغرب نظريات فكرية تلحد في الربوبية ، وتربط الإنسان بالمادة أو بالاقتصاد أو بذاته ، فانتشر فيهم القلق والاضطراب الروحي والفكري ، ودخل من هذه الثقافات إلى عقول

وتوجهات بعض المسلمين الروحية والفكرية بطريق أو بآخر. فصار الأمر بحاجة إلى تذكير دائم بالأصول العلمية التي ينبني عليها صحيح الاعتقاد في كل وسيلة تذكير ممكنة وأهمها الوسائل الثقافية.

وهذا بحث علمي في «الربوبية» يدرسها في خمسة مباحث:

الأول : تعريف الربوبية . الثاني : أدلة الربوبية .

الثالث : أحكام الربوبية . الرابع : منزلة توحيد الربوبية من الديانة. الخامس : إبطال الإلحاد في الربوبية.

استعنت الله وكتبته رجاء نفع الدارسين والقارئين ، وقد أردته مختصراً يأخذ بمجامع المهمات في الموضوع ، ويقف على رؤوس العلم فيه التي في تحصيلها تحصيله، وضَمَّنْتُ هؤلاء الورقات سعيي لمرادي ، فإن حصل فلله الحمد والفضل أولاً وآخراً لا شريك له ، وإن كانت الأخرى فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان .

هذا، وقد نشرت هذا البحث مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (العلوم الشرعية) في عددها الحادي عشر الصادر في ربيع الآخر ١٤٣٠هـ، من الصفحة رقم (١٣) إلى الصفحة رقم (٤٩) تحت عنوان (معنى الربوبية وأدلتها وأحكامها وإبطال الإلحاد فيها)، وأقدمه للقارئ في هذه المطبوعة بعد أن أضفت إليه مالم يكن في منشور المجلة ، وبعد اختصار عنوانه .

أ.د. محمد بن عبدالرحمن أبوسيف الجهني

المبحث الأول

تعريف الربوبية

(الربوبية) مصدر من رب يرب ربابة وربوبية وتربية ، وفي الألفاظ المشتقة من هذا الفعل لفظان مختصان بالله سبحانه لا يطلقان على غيره :

١- الاسم : «الرب» ، فهذا الاسم مطلقاً معرفاً بالألف واللام لا يطلق إلا على الله عز وجل ، فهو «الرب» سبحانه ، ولا يطلق على غير الله إلا مضافاً فيقال للمخلوق : رب كذا ، كقوله ﷺ في أشراط الساعة : «حتى يهم رب المال من يقبل صدقته»[١] وكما في حديث رافع بن خديج «أن النبي ﷺ أمر

(١) أخرجه البخاري ، الصحيح من الفتح ١٣ / ٨٢ رقم ٧١٢١.

رب الأرض أن يزرعها أو يزرعها»[1] ، وفي مسند أحمد عن أبي الأحوص عن أبيه أن النبي ﷺ قال له : «أرب إبل أنت أو رب غنم»[2] .

وقد ورد إطلاق «الرب» هكذا معرفاً بالألف واللام في قول الحارث بن حلزة :

وهو الرب والشهيد على يوم الحيارين والبلاء بلاء[3] أراد به الملك ، وهو لضرورة الشعر، ولم يكن سائراً في استعمالهم .

وإنما اختص اسم «الرب» بالله تعالى لأن الألف واللام تدل على العموم بمعنى رب كل شيء ، وليس كذلك إلا رب العالمين عز وجل ، قال ابن قتيبة : «ولا يقال لمخلوق: هذا الرب ، معرفاً بالألف واللام كما يقال لله ، إنما يقال : رب كذا ،فيعرف

---

(١) أخرجه مسلم ٣ / ١١٨١ رقم ١٥٤٨.

(٢) أخرجه أحمد ٢٨ / ٤٦٤ رقم ١٧٢٢ .

(٣) أنظر الصحاح ١ / ١٣٠ ، والنهاية في غريب الحديث ٢٧٩/٢.

بالإضافة ، لأن الله مالك كل شيء ، فإذا قيل : الرب ،دلت الألف واللام على معنى العموم ، وإذا قيل لمخلوق : رب كذا ورب كذا نسب إلى شيء خاص لأنه لا يملك شيئاً غيره»[1] .

٢- المصدر «الربوبية» فلا يطلق إلا لله عز وجل ويطلق لغيره: الربا ية والتربية[2] .

والراء والباء أصل يدل على معنى جامع هو إصلاح الشئ والقيام عليه ولزوم ذلك[3] . وهذا المعنى يناسب أن يطلق عليه اسم «التربية» ولذلك قال الراغب : «الرب في الأصل: التربية»[4] .

---

(١) تفسير غريب القرآن ٩.

(٢) أنظر المفردات للراغب ١٨٤.

(٣) أنظر مقاييس اللغة ٢ / ٣٨١ – ٣٨٢ .

(٤) المفردات ١٨٤.

فمعنى الربوبية : تولي الله سبحانه خلقه بالتربية ، يخلقهم ويصلح لهم معاشهم ويقدر لهم أقدارهم ويقضي في مآلهم ويدبر شأنه .

وربوبية الله على خلقه تجتمع في ثلاثة أصول :

الخلق ، والملك ، والتدبير .

فهو خلق الخلق لا خالق غيره ، والخالق يملك ما خلق لا ملك لغيره فيه ، والملك المالك يتصرف في ملكه ويدبره لا تدبير لغيره فيه ، والتدبير يجتمع في ثلاثة أصول:

١) تسيير نظام الكون ، من خلق السموات والأرض وسكانهما ، وخلق الليل والنهار والموت والحياة ونحو ذلك.

٢) القدر من قسمة الأرزاق والأعمار والهيئات ونحو ذلك.

وهذان في الدنيا .

٣) البعث والنشور والحساب والجزاء .

وقد دل كتاب الله على أصول الربوبية الثلاثة : قال سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾المائدة: ١٧ فذكر الخلق في قوله «يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ» والملك في قوله «وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ» والتدبير في قوله «وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ» ومثله قوله سبحانه : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾الشورى: ٤٩ ، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾التوبة: ١١٦ وقوله : ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ الملك: ١٥.

ثم جاءت الآيات في كل أصل من أصول الربوبية الثلاثة مجملة ومفصلة ، ففي الخلق أجملت الآيات في نحو قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾الزمر: ٦٢وقوله : ﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ ﴾ فاطر: ٣وقوله : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ ﴾ الأعراف: ٥٤وغيرها .

وفصلت ، ففي خلق الإنسان قال : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴾الرحمن: ١ - ٣وقال في الأنعام : ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَا ﴾النحل: ٥وقال في النبات : ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴾يس: ٣٦ ونحو ذلك في الجبال والبحار والسحاب والأرض والسموات والليل والنهار وأنواع المخلوقات .

وفي الملك أجملت الآيات في نحو : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ ﴾ الملك: ١ وقوله ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا

﴿ بَيۡنَهُمَا ﴾المائـدة: ١٧ وقـــوله : ﴿ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ المائدة: ١٢٠ ، وفصلت في نحو قوله : ﴿ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾ يونس: ٣١ وقوله ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾الناس: ٢ وأخبر أنه سبحانه في الدنيا يؤتي خلقه ملكاً : ﴿ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾البقرة: ٢٤٧ ، ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾آل عمران: ٢٦ ويُخْلِص لنفسه الملك يوم القيامة فلا يملك إلا هو : ﴿ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾الأنعام: ٧٣، ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ غـافر: ١٦ ، ﴿ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ ﴾الحج: ٥٦ وغيرها من الآيات .

وفي التدبير أجملت الآيات في نحو قوله سبحانه : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ السجدة: ٥ وقوله : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ ﴾ يونس: ٣.

وفصلت بذكر أصول التدبير الثلاثة التي ذكرنا ،

ففي تسيير نظام الكون قال سبحانه : ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّى ﴾ الزمر: ٥ وقال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ الأعراف: ٥٧ وغيرها من الآيات ، وفي القدر قال سبحانه : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴾ القمر: ٤٩ وقال : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴾ الفرقان: ٢ وقال : ﴿ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴾ الأحزاب: ٣٨ وغيرها من الآيات .

وفي البعث والنشور والحساب والجزاء قال سبحانه : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ التغابن: ٧ وقال : ﴿ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ﴾ الغاشية: ٢٥ - ٢٦ وغيرها من الآيات .

والربوبية فيها عموم وخصوص ، فعمومها : تربيته سبحانه جميع خلقه بالتدبير يخلقهم ويرزقهم ويحييهم ويميتهم : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ الزمر: ٦٢ فله الوكالة على كل شيء خلقاً وملكاً وتدبيراً.

وخصوصها : تربيته لأوليائه من خلقه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم .

وحقيقة الربوبية العامة : تربية الخلق والملك والتدبير .

وحقيقة الربوبية الخاصة : تربية التوفيق للخير والعصمة من الشر .

قال تعالى يحكي قول سحرة فرعون لما آمنوا : ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾الأعراف: ١٢١ - ١٢٢ فخُصِّص موسى وهارون بربوبية تمتاز عن الربوبية العامة للخلق ، ومثله قول الله في إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾البقرة: ١٣١ إضافة تخصيص ثم إضافة تعميم ، وقول أصحاب الكهف ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ﴾الكهف: ١٤ ونحوه : ﴿ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ غافر: ٦٦ وقوله : ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾الأنبياء: ١١٢ ، وقال هود عليه السلام : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ هود: ٥٦ ، وقال موسى لفرعون وملأه : ﴿ إِنِّي

عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ غافر: ٢٧ وقال المسيح : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ المائدة: ٧٢ وقال الله لنبيه محمد : ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ البقرة: ١٣٩، في جميع هؤلاء الآيات إضافة الربوبية إلى أصفياء الله مع إضافتها إلى عامة الخلق ، وهما غيران إحداهما أخص من الأخرى ، فهو رب أصفيائه بهدايتهم وتوفيقهم وإصلاحهم ورب العامة بخلقهم وتدبيرهم وقهرهم .

<u>وسر الخصوصية في الربوبية الخاصة هو</u> : أن تمام الخضوع للرب وأكمله إنما يكون بالخضوع لأمره الشرعي، وهذا لا يكون إلا من أهل محبته وولايته ، فهم شاركوا جميع الخلق في الخضوع للرب قهراً ورغماً واختصوا بالخضوع لأمره ونهيه اختياراً وانقياداً، فهم أحبوا الله الذي له عليهم الربوبية العامة فوالوه وانقادوا لشرعه ، أما بقية العامة فأحبوا غير ربهم الذي له عليهم

الربوبية ، فوالوا غيره ، فهم أولياء محبوباتهم من دون الله وإن كانوا مربوبين له سبحانه لا لغيره ، فلما كان ذلك كذلك اختص سبحانه أولياءه بخصائص من ربوبيته أعرض بها عمن أعرض عنه من مربوبيه .

ويترتب على ذلك انقسام العبودية إلى قسمين :

عبودية عامة وعبودية خاصة . فأهل العبودية العامة لهم الربوبية العامة وأهل العبودية الخاصة لهم الربوبية الخاصة.

المبحث الثاني

أدلـــــة الـربـوبـيـة

يدل على الربوبية دليلان هما أصل الدليل عليها ، ولكل واحد منهما شواهد تقرره ،وهما :

- الفطرة – وهي دليل علمي مركوز في أصل الخلقة .

- الآيات – وهي دليـل نظـري – مبثـوث في الأنفـس والآفاق المذكورة فى قوله جل شأنه: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ** ﴾ (فصلت: من الآية٥٣)

١-الفطـــرة :

هي قاعدة دليلي الربوبيـة ، وهي لا تحتاج إلى الآيات ، لأنها تعرف الربوبيـة بدون الآيات، ولـو لم تكـن تعـرف الربوبية ما عرفت أن الآيات دالة على الـرب[(١)] ، وإنما تفيـدها الآيات زيادة اليقـين ورسـوخ العـلم مـا دامـت سليمة من الاجتيـال عـن قصـد مربوبهـا والتـأله له، فـإن اجتيلـت عـن وجهـا وأصـلها أفادتهـا الآيات تـذكيرها

(١) أنظر الفتاوى ١ / ٤٨ .

وتقويمها فتردها إلى أصلها . ولذلك لو أن الخلق تركوا وفطرتهم التي فطروا عليها لم يتسلط عليهم شيطان ولا هوى لما عبدوا إلا الله وحده ، لأنهم لا يعرفون لهم رباً سواه . وحينما اجتالتهم الشياطين عن فطرتهم جاءتهم الرسل تذكرهم بما هو معلوم لديهم ، لم تأتهم بشيء جديد عليهم لا يعرفونه ، بل إنما كانت الحجة عليهم فيما انحرفوا فيه بما يقوم في فطرتهم من العلم والمعرفة بالربوبية .

وهاهنا معنى جليل عظيم ينبغي الانتباه له وتَبَيُّنُه ، وهو : أن العبد مفطور على أمرين هما نوعان للفطرة التي فطره الله عليها :

<u>الأول :</u> معرفة الرب ،وهذا النوع مركوز في أصل الخلقة ، هو من تركيبها ، باقٍ فيها لايزول منها ، ولذلك لايلحق هذا النوع تغيير بحال ، ولا يمكن اجتياله البتة ، ولذلك لايكون التكذيب بالربوبية وإنكارها إلا ظاهراً ، ولا يقع باطناً قط ،

فيقع إنكار الربوبية دعوى لسانٍ ظاهرة ونفس المنكر مستيقنة المعرفة والإثبات ، كما قال الله في فرعون وقومه : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ النمل: ١٤ وكما قال تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ الأنعام: ٣٣ ، ولهذا فإن جنس التكذيب بالربوبية إنما هو جحد ، لايكون إلا كذلك فلا يكون جهلاً ولا شكاً، لاصورة للجهل فيه ولا للشك ، والجحد هو التغطية ، والتغطية هي ستر الموجود وحجبه عن الظهور.

الثاني: التألُّه للرب بالقصد والتوجه ،وهو العمل بمقتضى المعرفة ، وهذا النوع فطر عليه العبد مع ابتداء وجوده ، فهو عند أول وجوده لايكون إلا متألهاً لخالقه متوجهاً إليه بقصده وطلبه ، كما قال عز وجل : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ

﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ ، فبين أن إقامة الوجه له وهو قصده والتأله له فطرة فطر خلقه عليها ، وفي الحديث القدسي قال تعالى " إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين "[(١)] وقال ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها»[(٢)] فالعبد يولد مفطوراً على دين الإسلام ثم قد تجتاله شياطين الجن والإنس عن قصده ربه وتوجهه إليه إلى أن يقصد سواه فينحرف عن الطريق التي فطر على سلوكها، فهو مفطور

---

(١) أخرجه مسلم ٢١٩٧/٤ رقم ٢٨٦٥.

(٢) متفق عليه ، البخاري مع الفتح ٣ / ٢٤٥ رقم ١٣٨٥ ، مسلم ٤ / ٢٠٤٧ رقم ٢٦٥٨.

على التأله لربه في أول الأمر لايكون عند ابتداء وجوده إلا هكذا ، ثم قد يلحق هذه الفطرة فيه اجتيال .

فإذا وقع أن انحرف فيما فطر عليه من التأله كانت فطرته على معرفة ربه المركوزة فيه هي السبيل لرده إلى الجادة.

ولهذا المعنى قال أهل العلم : إن العبد لو ترك وفطرته ما عبد إلا الله ، وله قالوا أيضا : إن الرسل لم تأتي أقوامها بشئ جديد عليهم بل جاءتهم تذكرهم بما هو معلوم عندهم ، ولهذا لما قالت الأقوام لرسلهم القولة التي حكاها الله ﴿ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٍ ﴾ إبراهيم: ٩ قال الله : ﴿ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ إبراهيم: ١٠.

وإنما كانت الفطرة دليلاً لأمرين :

الأول : المعرفة التي ركزها الله في أصل الخلقة.

الثاني : الميثاق الذي أخذه الله على بني آدم المذكور في قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣ فالله عز وجل قرر بني آدم وأخذ العهد عليهم بإثبات الربوبية التي فطرهم على معرفتها والإقرار بها ، وليس في الآية أنه عرف نفسه إليه بل فيها أنه ابتدرهم السؤال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ و هذا خطاب لمن يعرف الجواب لأخذ الإقرار منه، ولذا كان جوابهم جواب العارف المقر﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾، ورتب الرب تعالى على هذا الإقرار أحكامه فبين أن الحجة به قائمة إلى يوم القيامة ، وأنه قاطع للعذر مانع من الإيرادات عليه مسقط

لإدنى محاجة[١] ، فهي معرفة متمكنة الثبوت بنفسها لا تتبدل وتترتب عليها أحكامها.

(فمعرفة الربوبية ليست كسبية ، ولو كانت كسبية لوقع للكافر بها إيمان وثواب ، بل هي ضرورية ، ولذا يرجع إليها الكافر في شدائده ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ النحل: ٥٣، فهي ضرورية تعم بني آدم كلهم ، وهي أيضا عن رؤية للرب ، كما دلت عليه آية الميثاق المذكورة ، فإن فيها أن أخذ الميثاق كان في غير وقت الكسب والتكليف، وأن الرب تعرف

---

[١] ولهذا المعنى قال ﷺ : (لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم) – أخرجه أبوداود ٢٢٥/٤ رقم ٤٦٩٩ ، وابن ماجة ٢٩/١ رقم ٧٧ ، وأحمد رقم ٢١٥٨٩و ٢١٦١١و٢١٦٥٣ ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٦٨٨-- ، وقد تفضل سبحانه بكرمه ولطفه على عباده بأن أخذ على نفسه ألا يعذبهم إلا بعد أن يذكرهم فقال ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾الإسراء: ١٥، فهذا محض تفضل منه لا حق لهم فيه في أصل الأمر، ولذلك كان إرسال منة من الله ، ولهذا وصف الله الرسل والرسالات في غير موضع من كتابه بالرحمة في نحو قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الأنبياء: ١٠٧ .

إليهم بنفسه بلا وسائط ، وخاطبهم بحرف التعريف (التاء) ، فأقر الكل له بتلك المعرفة، إذ عاينوه جباراً قهاراً ، وهي معرفة لايقع بها إيمان ولا توحيد إذ ليس فيها للكافر اختيار ، إذ لوكان له فيها اختيار لجحدها كما جحد معرفة التوحيد)[1] .

وقد نشأت عن الفطرة شواهد تقررمعرفتها بالربوبية ودلالتها عليها [2] ، أظهرها : إجماع الخلق على الإقرار بالربوبية لواحد ، فإن الإقرار بالربوبية عام في البشر لم يدع أحد من الأمم أن للوجود أكثر من رب واحد ، وقد عبد الخلقُ آلهة كثيرين ولم يدَّع أحد أن لإلهه الربوبية ، بل الجميع مقرون

---

(١) مابين القوسين مضمن مع بعض تصرف من درء التعارض ٨/٥٠٨.

(٢) هذه الشواهد التي سنذكر بعضها جرت العادة عند كثير من أهل العلم على إفرادها في أدلة الربوبية ، فيجعلون كل واحد منه دليلا في ذاته مستقلا في الدلالة ، ومع التدبر يظهر أن دلالتها على الربوبية ليست لأنها دليل في ذاتها تنشأ دلالتُها منها ذاتِها بل لدلالة الفطرة التي لولاها لم تكن ، فهي ناشئة عن دلالة الفطرة ، ولذلك أدرجتها في دليل الفطرة لأنها شواهدها وليست قسيما لها.

بأن آلهتهم مربوبة لواحد ، وغاية ما نقل هو في نسبة بعض أفراد الربوبية إلى غير الواحد مع الإقرار بالربوبية العامة الشاملة لواحد ، كقول المجوس الثنوية بالأصليين «النور» و «الظلمة» وزعموا أن النور خلق الخير والظلمة خلقت الشر ثم قالوا في الظلمة أنها مخلوقة للنور أو ناقصة عنه[1] .

ومثله قول القدرية المعتزلة مجوس هذه الأمة بأن العباد خالقوا أفعال أنفسهم ليس لله عليها خلق .

ومن الشواهد أيضاً ميل الفطرة إلى الإلزامات العقلية التي تميِّز الحق في شأن الربوبية وتعيِّنه ، وقبولها هذه الإلزامات وسكونها إليها ، كالاستدلال بالأثر على المؤثر وبالفعل على الفاعل وبالمحدَث على المحدِث .

(١) أنظر الفتاوى ٣ / ٩٦ – ٩٧ .

ولهذا ألزم الله العقول بما تقتضيه الفطرة في شأن الربوبية في مواضع من كتابه ، منها قوله جل وعلا ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾الطور: ٣٥، قرأ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية في صلاة المغرب وسمعها الجبير بن مطعم رضي الله عنه وكان مشركاً لما يسلم بعد فكاد قلبه يطير كما أخبر هو رضي الله عنه عن نفسه[١] وقال رضي الله عنه : (وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي)[٢]،وهكذا صورة الحق الذي تعرفه الفطرة، إذا أُلزمت به أخذها بحجته لمجرد ذكرها ، وفي الآية إلزام العقل بنظر قامت في الفطرة حجيته ولذا لا تتوانى في الميل إليه. وللمفسرين في هذه الآية ثلاثة أقوال : الأول : أن المعنى : أم خلقوا من غير رب خلقهم. الثاني : أن المعنى : أم

(١) أنظر الحديث الوارد بهذا في البخاري،الصحيح مع الفتح ٦٠٣/٨ رقم ٤٨٥٤.

(٢) أنظر هذه الرواية للحديث في البخاري، الصحيح مع الفتح ٣٢٣/٧ رقم ٤٠٢٣.

خلقوا من غير مادة . الثالث: أن المعنى : أم خلقوا من غير عاقبة وجزاء. وحسم ابن تيمية رحمه الله هذا التعدد في الأقوال ببيانه اجتماعها على معنى واحد ولابد ، قال : "الأول مراد قطعاً فإن كل ما خلق من مادة أو لغاية فلابد له من خالق"[1] وبين رحمه الله أن هذا المعنى تعرفه الفطرة وأنه لم ينازع فيه العقلاء ، وأنه لايعرف عن أمة من الأمم مخالفته[2] .

٢-الآيـــات :

وهي مخلوقات الرب سبحانه الدالة عليه كالشمس، والقمر ، والجبال ، والشجر ، والدواب ، والبشر، والماء ، والحجر، وغيرها من مخلوقاته عز وجل .

---

(١) الفتاوى ١٣/١٥١.

(٢) أنظر الفتاوى ٢/١١ و ١٣/١٥١ و ١٨/٢٣٦.

وإنما كانت دالة على الربوبية لأنها علامات ، العلم بوجودها يستلزم العلم بموجِدها

ودلالة الآيات من وجهين :

الأول : افتقارها إلى الرب في وجودها وحدوثها .

الثاني : افتقارها إلى الرب في بقائها وتدبيرها بعد حدوثها .

فحاجتها إلى محدِث قبل حدوثها دليل على محدثها قال سبحانه :

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ الطور: ٣٥، وقال ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ الواقعة: ٥٨ - ٥٩.

وحاجتها بعد حدوثها إلى تدبير أمرها دليل على مدبرها ، قال سبحانه : ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ الملك: ٢١، وقال : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ الملك: ٣٠

وقد جمع الله الوجهين جميعاً في آيات منها قوله سبحانه : ﴿ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾النمل: ٦٤ فقوله : ﴿ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ﴾هو الوجه الأول وهو الافتقار للمحدث، وقوله ﴿ وَمَن يَرۡزُقُكُم ﴾ هو الوجه الثاني وهو الافتقار للمدبر ، وكذا قوله سبحانه : ﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾فاطر: ٣ فيها الوجهان الإنشاء والتدبير.

ولما كان كل شيء مخلوقاً لله ، أحدثه الله من عدم وهو يدبره، كان كل شيء آية على ربوبيته سبحانه بنفسه ، فمجرد وجود المخلوق دال على ربوبية الله نفسه سبحانه .

فالآيات دالة بنفسها على الرب نفسه سبحانه ، ولذلك ورد في النصوص إطلاق كونها آيات إطلاقاً مباشراً غير مقيد وجعل ذلك دليل الربوبية ، كقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾البقرة: ١٦٤ وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾الإسراء: ١٢، وقوله : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾يس: ٣٧ ونحو ذلك .

فالآية تدل على ربوبية الله دلالة مباشرة ، وهذا بخلاف ما تسلكه المتكلمة من الاستدلال بوجود المخلوقات على حدوثها ثم بحدوثها على المحدِث ، فيجعلون دلالة الآيات على ربوبية الله لها بواسطة ، وبقيد دلالتها على الحدوث أولاً . **وهي طريق باطلة جملة وتفصيلاً ، أما جملة فمن وجوه :**

أولاً : لمخالفتها الطريقة الشرعية التي فيها الاستدلال بالآية نفسها مباشرة على المحدث سبحانه .

ثانياً : مخالفتها للفطرة التي تنسب الآية إلى محدثها سبحانه مباشرة .

ثالثاً : أن طريق المتكلمين هذه لا يتصور معناها إلا مع الشك في إحداث الله لمخلوقاته فيُحتاج إلى إثبات الحدوث أولاً لهذا الشك، وهذا يقال فيه ما قالته رسل الله: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إبراهيم: ١٠.

رابعاً : أنه قد وقعت منهم هذه المقالة الكفرية فقالوا:إن أول واجب على العبد الشك ليقع منه النظر في الكون ليصل إلى معرفة الله (١) .

خامساً : أنها ذريعة إلى الباطل ، فإن الاستغراق في النظر في دلالة الوجود على الحدوث يوقع الشبهة في القلب المريض على

(١) انظر المواقف في علم الكلام للايجي ٣٢ ، وفتح الباري ١٣ / ٣٥٠.

وجود الخالق سبحانه ، كما في الحديث «إن رجالاً سترتفع بهم المسألة حتى يقولوا : الله خلق الخلق فمن خلقه»[(١)] .

سادساً : أنها أوقعتهم في هذا الباطل المذكور ولأجله عطلوا الله عن صفاته وشبهوه بالممتنعات أو المعدومات أو الناقصات .

والحق أن كل مخلوق دليل بنفسه على الرب نفسه سبحانه ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ؟!﴾ وفي كل شيء آية تدل على أنه الواحد ، فكل شئ من المحدثات آية بعينه تدل على الرب عينه عز وجل.

وبين الاستدلال بحدوث المحدَث والاستدلال لحدوثه فرق بيّن ، والذي في القرآن الأول ــ كما ذكرنا ــ، أما طريقة المتكلمين فهي الثاني ، فإنهم يتكلمون في أدلة حدوث المحدثات أولاً ، ثم في دلالة الحدوث بعد ثبوته على المحدِث .

---

(١) أخرجه احمد بهذا اللفظ ١٣ / ٢٠٢ رقم ٧٧٩٠ وهو في مسلم ١٢٠/١ رقم ١٣٥.

وهي طريق فاسدة على التفصيل، فإن فيها :

١- الاستدلال على الحق الجلي الظاهر البيّن بلا ريب ولاشك بالترتيبات العقلية الخاطئة في ذاتها والخافية في صورتها والباطلة في تقريرها .

أما خطؤها في ذاتها : فلأنها أقيسة ، والأقيسة لاتدل إلا على معاني كلية ، لاتدل على معيَّن ، فإذا قيل : كل محدَث فله محدث ، فإنما يدل على محدِث في الجملة لا عين المحدِث ، بل نفس تصور هذا المعنى لا يمنع وقوع الشركة فيه ، وإذا قُدِّر أنه عُرف أنه واحد لايقبل الشركة فإن عينه لا تعرف إلا بدليل آخر .

وأما خفاؤها في صورتها : فلأن فيها استعمال أدلة الأعراض والتركيب وحلول الحوادث ، وهي طريق عويصة ، بل لقد أقر أهل الكلام في دليل الأعراض خاصة أنه معتاص ، وأدلتهم هذه مبنية على لزوم تصور ذات مجردة عن الصفات،

والصفات شئ آخر غيرها ، ثم تعرض الصفات على الذات أو تركب عليه أو تحل فيها، وتصوروجود ذات خارج الذهن مجردة عن الصفات ممتنع ، فإن صفات الأشياء خارج الذهن هي حقيقة ذاتها ليست شيئاً آخر قط ، ولا توجد ذات إلا بصفاتها .

وأما بطلانها في التقرير : فلأن فيها تقرير أن الاتصاف بالصفات هو دليل الحدوث ، وهذا باطل ، فإن الاتصاف بالصفات هو دليل الوجود ، ومن لا صفة له لا وجود له ، ثم الموجود المتصف بصفاته قسمان: محدِث ومحدَث ، ولكل منهما صفاته التي تخصه وتليق به ، وتضاف إليه فيتقيد به حكمها فلا يعود على الآخر.

٢- أن نفس حدوث المحدثات من حيوان ونبات ومعدن ومطر وسحاب ونحو ذلك معلوم بالضرورة ومشهود بالحس ، فلا يحتاج إلى دليل ، لأن مايعلم بالدليل هو مالم يعلم بالضرورة

ولم يشهد بالحس[1] ، أما علم حدوث المحدثات بالضرورة ؛ فكما قال الله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ الطور: ٣٥ يخاطب الضرورة بسؤال فيه تقرير ما تعلمه ، فيقيم عليها الحجة بما في معلومها .

وأما علم حدوث المحدثات بالحس ؛ فإن حدوث الإنسان من المني ، وحدوث الثمار من الأشجار ، وحدوث النبات من الأرض ، ونحو ذلك ، كله معلوم بالحس ، كما قال تعالى في حدوث الإنسان : ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾مريم: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾مريم: ٩.

والحس يشهد في الحدوث أمرين : الأول : أن هذه المخلوقات خلقت من غيرها ، كما خلق الإنسان من نطفة ، والطائر من بيضة ، والثمر من شجرة، والشجرة من نواة ، والسنبلة من

[1] أنظر درء التعارض ٢١٩/٧ ومابعدها.

حبة، وهكذا . الثاني : أن ما منه خُلق هذا استحال وزال ، فالحبة التي أنبتت سبع سنابل لم تبق حبة ولم يبق منها شئ بل استحال .

وجواب المتكلمين عن أن الحدوث مستغنى في العلم به عن الدليل للضرورة والحس أن قالوا : إنما يعلم بالضرورة والحس حدوث ما يحدث من الأعراض والصفات ، أما حدوث شئ من الأجسام القائمة بأنفسها فلا نعلمه إلا بالاستدلال ، والجواب عن هذا من وجهين : الأول : أن الحادث هو نفس أعيان الحيوان والنبات ونحوه لا مجرد صفاتها ، ومعلوم بالضرورة امتناع ذوات خارج الذهن مجردة عن الصفات . الثاني : أنه معلوم بالحس أن المني إذا صار حيواناً ، والماء إذا صار هواءً ،والهواء إذا صار ماءً ، فالجسم الثاني له عين وصفات ليست عين الأول ولا صفاته ، وإنما يشتركان في النوع، أي أن صفات هذا من نوع صفات هذا لا أنها هي هي،

فليس في الحس جسم قائم بنفسه شائعاً في جسم قائم بنفسه، لكن خُلق من مادة ، كما خلق الإنسان من مني ، وهذه المادة لا تبقى مع وجود ما خلق منها[١] .

وللآيات شواهد تقرردلالتها على الربوبية [٢]، وأظهر الشواهد المقررة لدلالة الآيات على الربوبية : معجزات الرسل، فإن معجزات الرسل آيات للربوبية.

---

(١) أنظر الدرء ٧/٢٢٠-٢٢٤.

(٢) هذه الشواهد التي سنذكر بعضها جرت العادة عند كثير من أهل العلم على إفرادها في أدلة الربوبية ، فيجعلون كل واحد منه دليلا في ذاته مستقلا في الدلالة ، ومع التدبر يظهر أن دلالتها على الربوبية ليست لأنها دليل في ذاتها تنشأ دلالتُها منها ذاتِها بل لدلالة الآيات التي لولاها لم تكن هذه الشواهد ، فهي ناشئة عن دلالة الآيات ، ولذلك أدرجتها في دليل الآيات لأنها شواهدها وليست قسيما لها.

قال الله : ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾الشعراء: ٦٥ - ٦٧وقال سبحانه في نوح : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ الشعراء: ١١٩ - ١٢١. وقال في لوط عليه السلام ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ الشعراء: ١٧٠ - ١٧٤وقال عن مدين : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾الشعراء: ١٨٩ - ١٩٠.

ووجه تقرير معجزات الرسل لدلالة الآيات على الربوبية : أن معجزات الرسل خوارق للسنن الجارية في الكون ، فهي تأتي

على خلاف ما أجرى الخالق العادة به وعهده الخلق عليها ، ولا يُـخلف سـنة جاريـة فيُجريهـا عـلى خـلاف المعتـاد إلا الذي أنشأها، فمعجـزات الرسـل لا يسـتطيعها إلا الـرب الذي خلـق الآيات ولا تكون إلا منه سبحانه.

وفي المعجزات تقرير شأن من شأن الربوبية لا يكون إلا للـرب فحسـب وهـو طلاقـة القـدرة ، فـالرب لا تُحـدُّ قدرتـه سـنة لا يستطيع أن يفعل إلا على وفقها ، بـل هـو يجـري السـنن الـتي تقتضيها إرادتـه وحكمته وهـو يُـخْلِفها عـلى مـا تقتضـيه إرادتـه وحكمته، فهو على كل شئ قدير وهو فعال لما يريد وهو الحكيم الخبير ، ولذلك استعمل إبراهيم عليـه السـلام في إلجـام نمـرود الحجة في إبطال ادعائه الربوبية بهذا الشـأن مـن شـأن الربوبيـة حين قال له : إن الرب يأتي بالشمس من المشرق فأتي بها مـن المغرب ، فبهتت الحجة نمرود وألجمته.

والمعجزات لم يجرها الله إلا لإظهار صدق الرسل في دعوى الرسالة وصحة تبليغهم إياها ، فإن من المعلوم بالضرورة أن من أرسل رسولا إلى قوم فلابد أن يرفق معه علامة تدل المرسَل إليهم على صدقه وصحة الرسالة ، ولا تكون هذه العلامة دالة على ذلك حتى تكون من خصائص المُرسِل يعرف المرسَل إليه أنها لاتكون لغير المرسِل قط وأن كونها مع الرسول دليل على أنه مرسِله بلا ريب.

ومن الشواهد المقررة لدلالة الآيات على ربوبية الله سبحانه أن ما خلقه الله لا يستطيع الخلق صنع مثله قط ، وهو سبحانه لم يخلق شيئاً أقدر العباد على أن يصنعوا مثله ، بل قضى سبحانه أن يكون وجود ما أقدرهم عليه من صنعهم هم ، فهو سبحانه أقدر خلقه أن يصنعوا طعاماً مطبوخاً ولباساً منسوجاً وبيوتاً مبنية ونحو ذلك ، ولم يخلق لهم مثل ما يصنعونه من المطبوخات والمنسوجات والمبنيات ، ولكن ما خلقه هو

سبحانه من حيوان ونبات ومعدن ونحوه فان الخلق لا يقدرون أن يصنعوا مثله ، لا يقدر العباد أن يصنعوا مثل ما خلقه الله مثل الإنسان والفرس والأنعام والطير والحيتان ، ولا مثل الحنطة والشعير والعنب والرطب ، ولا مثل الذهب والفضة والنحاس ونحوه ، لا يقدر العباد أن يصنعوا مثل ما يخلقه الله، وإنما غاية ما يصلون إلى صناعته أن يصنعوا ما يشبه ما خلقه الله من بعض الوجوه من غير أن يكون مثله ، فهو يشبهه من بعض الوجوه مع اختلاف الحقائق ، كما قد يصنعون ما يشبه الحيوان حتى يكون في صورة الحيوان وليس بحيوان وما يشبه النبات وليس بنبات ، وما يشبه المعدن وليس بمعدن ، والمصنوع لا يكون مثل المطبوع بحال[1] . ثم إن المواد التي يستعملها العباد في صنع ما يشبه ما خلقه الله مواد مخلوقة لا قدرة لهم على خلقها، فيكون غاية ما يفعلون أن يستعملوا مما

(١) أنظر الفتاوى ٢٩/٣٦٨-٣٦٩ .

خلقه الله في صنع ما يشبه مخلوقاته ، لا يستطيعون أن يخلقوا كخلقه سبحانه[1] .

ومن الشواهد المقررة لدلالة الآيات على ربوبية الله سبحانه ما فيها من الاشتراك في أسباب الوجود والبقاء مع ما فيها من الافتراق والتعداد ، فهي مفترقة في أنواعها وأجناسها وأصنافها، متعددة في أفرادها ، وهي مع هذا مشتركة في التماثل أو التضاد، فهي إما متماثلة يلتئم بعضها إلى بعض ، ويؤثر بعضها في بعض، فيكون بعضها سبباً في وجود بعض أو بقائه وشرطاً له في ذلك ،كالإنسان أو النبات فالإنسان سبب في زرع النبات وإثماره والنبات سبب في غذاء الإنسان، فكل منهما سبب في بقاء الآخر وشرط له ، وكأفراد الإنسان يلتئم ذكره بأنثاه فيكون ذلك سبباً في وجود الأفراد وشرطاً له ، وأفراد

(١) هذا مع التنبيه إلى إن صنع هيئة الحيوان وكل ذي روح محرم لا يجوز وإنما يباح صنع هيئة الشجر والمعدن ونحوه مما لا روح فيه .

النبات كذلك سبب في وجود بعضها بعضاً وشرط له ، أو هي متضادة يعارض بعضها بعضاً ويضاده ويمنعه كالماء والنار ، فالماء يضاد النار ويمنعها ويكون سبباً في انعدامها .

وهكذا فهذا الاشتراك في كون المخلوقات كل منها سبب في وجود الآخر أو بقائه وشرط في ذلك ، أو سبب في انعدامه وزواله مع افتراقها وتعددها يوجب حاجتها إلى موجد أوجدها ومدبر دبرها على هذا النحو.

قال الله عز وجل : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾الذاريات: ٤٩ والزوج يراد به النظير المماثل والضد المخالف[1] .

---

(١) أنظر الفتاوى ٢٠ / ١٨١ - ١٨٣ .

المبحث الثالث

أحكام الـربـوبـيـة

للربوبية أحكام متعلقة بها تترتب عليها وتجب لها ، منها:

١- وجوب توحيد الله وإفراده بها فهو واحد في ربوبيته لا شريك له، ووجه تعلق هذا الحكم بالربوبية ظاهر ، فإنه لا خالق في الوجود غير الله ولا مالك للخلق سواه ولا يدبر أمر الوجود غيره فليس شيء من الربوبية لغيره : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾فاطر: ٣، ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴾الرعد: ١٦ ، ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾الزمر: ٦٢ فلا ند له في الربوبية ولا سمي ولا شريك ، وقد قرر سبحانه وحدانيته في الربوبية ببيان امتناع جميع وجوه

الشـركة فيها قال سبحانه : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾سبأ: ٢٢ - ٢٣ فنفى أن يكون لغيره ملك شيء في الوجود ملكاً مستقلاً ولو كان مثقال ذرة ، أو أن يكون لغيره شركة في الملك وإن لم يستقل بملك ، أو أن يكون أعان المالك في ملكه بوجه من وجوه العون الموجب للشـركة ، أو أن يكون له نظير في منزلته ومرتبته فيكون له عليه جاه يخوله أن يشفع عنده من غير إذنه ورضاه ، أو أن تكون له عند غيره مصلحة يداريه لأجلها فيكون له أن يشفع عنده بغير إذنه ورضاه ، فتكون له كلمة على الرب يستخلص بها منه تدبيراً لا إرادة له فيه ؛ فإذا امتنعت أصول الشركة هذه امتنعت الشـركة من أصلها ، فوجب توحيد الربوبية له سبحانه .

٢- وجوب إثبات صفات الله عز وجل وإفراده بها على وجه الكمال المطلق المنزه من كل نقص وعيب الذي لا مثل له فيه ، ووجه تعلق هذا الحكم بالربوبية: أن أفعال الربوبية مثبتة لصفات الرب ، لأنها أفعال صادرة عن صفات قائمة بذاته ، وأفعاله كلها كمال لا عيب فيه فصفاته كمال كلها لا عيب فيها بوجه ، كمل ففعل جل وعلا.

٣- وجوب إفراد الرب بالعبادة وتوحيده في الألوهية، وهذا أجلى أحكام الربوبية ظهوراً وأشدها وضوحاً ، ووجه تعلق هذا الحكم بالربوبية : أن الرب الذي خلق ويملك ويدبر الأمر هو المستحق للعبادة دون سواه ، فلا معبود بحق إلا هو ، إذ كل شيء غيره عبد له مربوب له منقاد لتدبيره فيجب أن ينقاد له في تألهه ، ولهذا جاءت الرسل تحتج على أقوامها بما يعرفونه ويقرون به من توحيد الله بالربوبية على وجوب توحيده

بالعبادة وإفراده معبوداً وحده دون غيره من الآلهة ، وجرت قاعدة القرآن على تقرير الألوهية بالربوبية .

٤- أن للرب معنى الربوبية قبل أن يوجد مربوب ، ووجه تعلق هذا الحكم بالربوبية : أن الربوبية صفة قائمة بذات الرب وتصدر آحادها عنه متى شاء ، فهو خالق قبل أن يوجِد مخلوقاً فلما شاء أن يوجِد مخلوقه خلق ، وخلْقُه الخلقَ بعد أن لم يكن من تدبيره ، فهو لم يستفد صفة الربوبية من خلقه الخلق وتدبيره وإن كان الخلق إنما حدث حينما شاء سبحانه إحداثه ، وهو سبحانه من قبل أن يخلق الخلق على كل شيء قدير وكل أمر عليه يسير وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته .

٥- أن الرب أنشأ الخلق إنشاءً من عدم ولم يكن شيء من المخلوقات شيئاً قبل خلق الله له بل كان معدوماً ، ووجه تعلق هذا الحكم بالربوبية أن معنى الخلق : الإيجاد من عدم ، وهو أساس الربوبية ، ولو لم يكن الخلق معدوماً قبل إيجاد الله له

لصح القول بقدم العالم ولم يكن لله عليه خلق وإنشاء ، قال تعـــــالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾يس: ٧٨ - ٧٩ وقال سبحانه : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ ﴾مـــريم: ٩ وفي البخاري : «كان الله ولم يكن شيء غيره»[1] .

فكان الله وحده لم يكن شيء قبله ولا معه حتى أنشأ الخلق أول مرة ولم يكن شيئاً قبل أن يخلقه .

٦- أن كل شيء سوى الله عز وجل مخلوق ، فالله عز وجل بصفاته العلى هو الخالق وما سواه مخلوق ، ووجه تعلق هذا الحكم بالربوبية أن الله هو الرب وحده لا رب سواه ولا خالق غيره ، فليس في الوجود إلا هو سبحانه ومخلوقاته ، فيكون

---

(١) الصحيح مع الفتح٦ / ٢٨٩ ، ح ٣١٩١ .

كل شيء مخلوقاً له ، قال سبحانه : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ الزمر: ٦٢ والرعد: ١٦ وقال سبحانه : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ الفرقان: ٢ وهذا عام لا تخصيص فيه بوجه ما ، فلا يخرج منه إلا الخالق سبحانه بصفاته ، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾ فاطر: ٣ ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ فاطر: ٣ فكل ما كان غيره فهو مخلوق ، وقال سبحانه : ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ﴾ الأعراف: ٥٤.

المبحث الرابع

منزلة توحيد الربوبية

تقرر بما تقدم أن حكم الربوبية في الوجود توحيدُ الله بها ، وأن هذا التوحيد هو مقتضى الفطرة وميثاقها التي أُخذ عليها العهد به ، ومقتضى الآيات الدالة عليه في الأنفس والآفاق بيِّنةً ظاهرةً قاطعةَ الحجة.

وأن هذا التوحيد العلمي الذي نوعه المعرفة والإثبات هو والتوحيد العملي الذي نوعه القصد والإرادة هما الدين الذي يريد الله من عباده أن يدينوا له به.

ونفصل هنا بعض البيان لمنزلة توحيد الربوبية من الديانة.

أولاً : منزلته من الملة :

المراد بالملة : إقامة الوجه لله بالعبودية التي حقيقتها كمال الحب والتعلق مع كمال الذل والخضوع .

والحب والتعلق إنما يكون لذات المحبوب جل وعلا وصفاتها القائمة بها ولمراداته ومراضيه ، والذل والخضوع إنما يكون لأمر المحبوب جل وعلا بالامتثال ونهيه بالاجتناب.

وتوحيد الربوبية هو قاعدة الملة ، عليه تقوم أصول الديانة ومناهجها وشرعتها ، فهو دليل توحيد الأسماء والصفات ، وهو دليل توحيد الألوهية .

● أما دلالته على توحيد الأسماء والصفات ، فإن مايشهده الخلق في مفعولات الله في الوجود من عظمة وهيبة وجلال لا يُحاط به ، ومن إحكام وإتقان وضبط لا يُحاط به ، ومن جمال وبديع صنع لا يُحاط به ، ومن تدبير فيه من غلبة السلطان ونفوذ المشيئة ما لا يُحاط به ، ومن الحكمة البالغة ما لا يُحاط به ، ومن العدل التام مالا يُحاط به ، كل هذا وغيره مما لا تبلغه عبارة ولا يحيط به إدراك دالٌّ على كمال الفاعل عز وجل كمالاً لا يُحاط به ، وأنه تقوم به صفات الكمال التي لا

يُحاط بها علماً ، فإن مفعولاته عز وجل أثر أفعاله ، وأفعاله صادرة عن كماله ، كمُل ففعل عز وجل .

فإذا كان الله عز وجل هو الأحد في ربوبيته للوجود ليس معه ولا من دونه رب سواه كان هذا دالاً على أنه الأحد في صفاته لا مثيل ولا كفؤ ولا عدل ولا ند و لا سوي و لا سمي له جل وعلا ، وأن كل ما في الوجود محتاج إليه في وجوده وفي بقائه بعد وجوده.

وهذه الدلالة لتوحيد الربوبية على توحيد الأسماء والصفات قررها الرب سبحانه في كتابه في مواضع ، منها : قوله : ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾الأنبياء: ٢٢ وقوله : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ المؤمنون: ٩١، فقد ذكر الله في الآيتين أمرين : الأول : استقرار

ملك الوجود لخالق واحد . الثاني : انتظام سير الوجود على سنن منضبط بلا فساد . ورتَّب سبحانه على كل من الأمرين تنزيه نفسه عما يصفه به المبطلون من صفات تستلزم النقص . فهذا هو وجه دلالة توحيد الربوبية على توحيد الأسماء والصفات.

● وأما دلالته على توحيد الألوهية ، فإن حياة العبد قائمة على معرفة ما ينفعه وتحصيله ومعرفة ما يضره ودفعه ، ومقتضى الربوبية أن الرب سبحانه هو موجد العبد وموجد منافعه ومضاره ، وهو مدبر حصوله على ما ينفعه واندفاع ما يضره عنه ، ومع هذا الافتقار اللازم للعبد لربه فإن تعلق قلبه إنما يكون بالذي خلقه من عدم وهو يتولى تدبير وجوده ، فيقصده لطمأنينة نفسه وسكونها حباً وإجلالاً ، ولطلب النفع وقضاء الحاجات رجاءً في فضله ونواله ، وللأمن من المضار واندفاعها خوفا من غضبه وعقابه ، وهذا هو توحيد الألوهية ،

التأله للرب بإخلاص القصد إليه محبة ورجاء وخوفا، وهي لا تكون إلا للرب ؛ تستلزمها الربوبية ولابد.

فإذا كان الرب واحداً لا رب سواه كان التأله له وحده لا حق لسواه في أدنى شئ منه.

ومحبة الرب والطمأنينة إليه ورجاء رضاه وفضله وخوف غضبه وعقابه إنما يكون بذكره سبحانه والتزام شرائعه امتثالا لأمره وانتهاء عما نهى عنه ، والتزام شرائعه إنما يكون بمتابعة رسوله الذي يبلغها عنه. وهذا هو المنهاج والشرعة التي يؤدى بها التأله .

فهذا هو وجه دلالة توحيد الربوبية على توحيد الألوهية.

ثانياً : منزلته من الدعوة إلى الملة :

توحيد الربوبية هو قاعدة الدعوة إلى الملة ، وهو دليلها وحجتها على المخاطبين ، وهو مرجع حثهم على إجابة الدعوة وزجرهم عن منابذتها .

هو قاعدة الدعوة فإن الدعوة إنما تكون إلى الرب ؛ إلى إفراده هو بالعبادة .

وهو دليلها وحجتها على المخاطبين لأنه وجه استحقاق الرب لتوحيده بالعبادة بلا شريك ، وهو الحجة البالغة على المربوبين لوجوب القيام بحق ربهم عليهم الذي هو مقصود الدعوة.

وهو مرجع حثهم ، فبأفعال ربوبية الرب ـ من نصرة أوليائه الذين يوحدونه بالعبادة وتفضله عليهم بالآلاء التي غايتها نوال رضوانه ودخول جنته ـ الحث على التزام توحيده بالعبادة الذي هو موضوع الدعوة .

وهو مرجع زجرهم ، فبأفعال ربوبية الرب ـ من عقوبة أعدائه المشركين به وسخطه عليهم وتحريمهم على جنته ـ الزجر عن الإعراض عن توحيد العبادة الذي هو موضوع الدعوة .

وقد جرت دعوات الرسل عليهم السلام على دعوة الخلق إلى أن يفردوا ربهم بالعبادة ، وعلى الاحتجاج عليهم بتوحيد

الربوبية لإلزامهم بذلك ، وعلى الاستدلال به على إبطال الشرك الذي يتلبسون به ، وعلى حثهم وزجرهم بأفعال الربوبية ، وهذا مذكور مفصلا في كتاب الله ، منه قول نوح لقومه ـ وهو أول رسل الله ـ : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ نوح: ١٠ - ١٢، وقال لهم : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ هود: ٢٥ - ٢٦، ونظائر هذا تكرر في جميع دعوات الرسل عليهم السلام .

ثالثاً : عدم كفايته في حصول التوحيد :

إن مجرد الإقرار بانفراد الرب في ربوبيته لا يكون به العبد من أهل التوحيد حتى يقوم بحقه من توحيد الرب بالعبودية، ومن شواهد ذلك:

١- أنه غير كاف في ذات الأمر ، لأن التوحيد في ذاته هو إفراد الرب بالعبادة ، لامعنى له لغة ولا شرعاً إلا ذلك[١] .

فليس للإقرار بانفراد الرب في ربوبيته مع عبادة سواه معه أو من دونه معنىً إلا الشرك المناقض للتوحيد . وعبادة سوى الله معه أو من دونه حقها أن تعود بالنقض على الإقرار الاضطراري المركوز في أصل الفطرة بأحدية الرب في ربوبيته ، للمستقر في الفطر اضطراراً أنه لا يستحق أن يعبد إلا الرب وأن من لا ربوبية له فليس أهلاً لأن يعبد بجنس عبادة تكون ،

(١) أنظر تقرير هذا مفصلاً في كتابي " أهمية دراسة التوحيد " ص ١١- ١٩.

لكن هذا النقض لا تحتمله الفطرة ولا العقل بحال ولا محل له فيهما على أي وجه ، لأن المستقر فيهما لا يُنقض كما قال الله : ﴿ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ ﴾ الروم: ٣٠، ولذلك كان هذا الإقرارالمستقر في الفطر والعقول قاض بأنه لامعنى للتوحيد ولا صورة له إلا بإفراد الرب بالعبادة.

ولهذا المعنى كان الحكم الشرعي في الشرك أنه لا يُغفر قط ، فإن الحكمة من أن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر مادون ذلك هي أن الشرك لا يكون إلا مستلزماً تنقيص حظ الربوبية وإلحاق شريك مع الرب فيها ، فهو بهذا يبطل حكم الإقرار بتوحيدالربوبية ، أما المعاصي دون الشرك فليس فيها ذلك ، وإنما فيها مخالفة بعض شرعة المعبود .

وقد قال الله في المشركين مبيناً صورة دينهم الذي يقيمون عليه : ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم

مُّشۡرِكُونَ ﴾ يوسف: ١٠٦ ، فجعلهم مشركين مع ما وصفهم به من الإيمان الذي هو توحيدهم الرب في ربوبيته ، وقال فيهم مبينا صورة الدين الذي يكونون عليه حال الشدة والاضطرار إلى الرب : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٥، فجعل اجتماع التوحيد في الألوهية الذي حصل منهم حال الشدة مع ما هم مقيمين عليه من التوحيد في الربوبية هو صورة التوحيد ، وجعل ما يكون منهم حال النجاة والإقامة من التوحيد في الربوبية مع دعاء غير الله هو صورة الشرك ، فدل هذا على أن التوحيد لا يكون إلا بالتوحيدين جميعهما متلازمين غير منفكين وأن توحيد الربوبية وحده من

غير توحيد في العبودية لا يكون توحيداً في نفس الأمر.

٢- أن المشركين كانوا مقرين بتوحيد الربوبية فلم يقبل منهم لما هم عليه من الشرك ، وبعث إليهم الرسول بالنذارة والآيات يحاجهم عما هم عليه من الدين حتى يكونوا موحدين .

ومن شواهد إقرار المشركين بتوحيد الربوبية :

أ- إفرادهم الله وحده بلا شريك في أفعال الربوبية ، فهم يؤمنون بأنه هو سبحانه وحده الخالق المالك المدبر الرازق المحيي المميت منزل المطر ومحيي الأرض بعد موتها وغير ذلك من آحاد أفعال الربوبية، قال الله : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ

ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ يونس: ٣١، وقال سبحانه :

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴾ المؤمنون: ٨٤ - ٨٩، وقال تعالى﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾العنكبوت: ٦٣.

ب- إقرارهم بأن معبوداتهم التي يعبدونها مع الله هي وما ملكت مملوكة لله ، فأفردوا الرب في ربوبيته ، بل وادعوا أنهم إنما عبدوها لتقربهم إلى الله بشفاعتها لهم عنده ، أي لم يعبدوها لذاتها بل لما يرجونه من الرب بواسطتها ، وادعوا أن هذا إنما يقع منهم بمشيئة الله وقدره ، فردوا الأمر كله لله ، وهذا مع غلطهم فيه ـ إذ غلطوا بالشفاعة الشركية وبالاحتجاج بالقدر على الشرك ـ إلا أنه دال على ما قام في قلوبهم من الإفراد في الربوبية ، صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المشركين كانوا يقولون في طوافهم بالبيت : " لبيك لاشريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك "[١] ، وقال الله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٨٤٣/٢ رقم ١١٨٥.

عز وجل : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣ وقال تعالى ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ وقال سبحانه : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ ﴾ النحل: ٣٥، وقد قال أحد أشرافهم في الشعر وصاحب معلقة من معلقاتهم لبيد بن ربيعة : ألا كل شئ ما خلا الله باطل ، قال صلى الله عليه وسلم في كلمته هذه :

" إن أصدق كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد :
ألا كل شئ ما خلا الله باطل "[1].

ت- حصول إخلاصهم العبودية لله حال، وهو نتيجة إخلاصهم الربوبية ، قال الله : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾العنكبوت: ٦٥ ، وفي السنن أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل حصيناً الخزاعي[2] قال : " كم إلاها تعبد ؟ " ، قال حصين : أعبد سبعة ، ستة في الأرض وواحداً في

---

(١) صحيح مسلم ٤/١٧٦٨ رقم٢٢٥٦.

(٢) وقد اختلف في إسلامه ، وصحح ابن حجر في الإصابة الروايات في دخوله الإسلام، وهو والد عمران بن الحصين الصحابي رضي الله عنه.

السماء ، قال صلى الله عليه وسلم : " من تعد لرغبتك ورهبتك؟" قال : الذي في السماء[1] .

المبحث الخامس
إبطال الإلحاد في الربوبية

إن أدلة الربوبية وشواهدها حصن حصين في وجه الإلحاد فيها، فما من إلحاد في الربوبية إلا وكان انكشاف عواره أبين بيِّنٍ وأوضح واضح، وكان سوْق صاحبه إلى الحق ـ إذا كان طالباً للحق ـ أقرب مأخذاً وأيسر سبيلاً ، كيف لا وكل قائل في الربوبية بقولِ إلحادٍ تنازعه في قوله فطرته المركوزة في أصل

(١) جامع الترمذي ٥١٩/٥ رقم ٣٤٨٣.

خلقته والآيات وشواهدها التي يراها ويحسها ويعيشها ، فهو في صراع مع داخله ، لا يجتمع ما يخرج منه من إلحاد مع ما استقر فيه من علم ، وصراع مع كل شيء حوله من خارجه ، لا يجتمع شيء منه لا في وجوده ولا في حركته مع ما يدعيه ، ولذلك ما وقع إلحاد في الربوبية إلا وقع مضطرباً مكشوف العوار ، لا يسوغ إلا لدى الشواذ من الخلق ولا يتابع عليه إلا الضالون.

مورد الإلحاد في الربوبية:

هاهنا مسألة يقتضيها ما تقدم تقريره في المباحث السابقة ، وهي : أنه إذا كانت أدلة الفطرة والآيات وشواهدهما تقرر ركنين في الإقرار بالربوبية ليسا محل نزاع في ذاتهما ، ولم يقع من أحد من الخلق منازعة فيهما ، وهما أن للوجود رب ، وأن الرب واحد منفرد بربوبيته لاشريك له فيها ، فمن أي وجه ورد الإلحاد في الربوبية إذاً ؟!

وعند التدبر نجد أن كل من قال بقول إلحاد في الربوبية فإنما يرجع قوله إلى الإلحاد في تعيين الرب وتسميته مَنْ هو؟ لا في وجوده وأنه خالق الموجدات وحده ، فالخلق كلهم على اختلاف مقالاتهم مقرون بأن لهذا الوجود رب خلقه وحده ، ولكن ثمة من ادَّعى أنه هو هذا الرب ، وثمة من ادُّعيَ فيه أنه هو الرب.

أنظر قول من ادَّعى الربوبية كالنمرود وفرعون ، لم يخرجا في القول في الربوبية عن إفراد رب بها ، لكن كل واحد منهما ادعى أنه هو هذا الرب ، فكان إلحادهما في تعيين الرب لا في أصل الربوبية ، وانظر قول الماديين و الدهريين ، لقد أقروا بأصل الربوبية و ردوها لواحد عينوه لها وهو المادة أو الدهر ، فكان إلحادهم في تعيين الرب لا في أصل الربوبية .

وانظر قول المجوس الثنوية ــ والتثنية غاية ماقاله الخلق في الربوبية ولم يقل بها غيرهم ــ ، عينوا خالقين هما النور

والظلمة، ثم قالوا في الظلمة أنها مخلوقة للنور ، وأنها أنقص منه، فردوا أصل الخلق والكمال لواحد ، وجعلوا هذا الواحد هو النور ، فكان إلحادهم في التعيين.

وهكذا كل قول إلحاد ، لا تجد فيه منازعة لركني الربوبية المذكورين : أن للوجود رب خلقه ، وأن رب الوجود واحد ، وإنما يرد الإلحاد من جهة تعيين الرب وتسميته للربوبية.

هذا ، و قد انتشرت في أواخر القرن السابع عشر- في أوروبا ـ وفي انجلترا على الخصوص ـ رؤية للخالق تسمى «الربوبية» تتلخص الأفكار الأساس فيها في :

أن العالم لم يوجد بالصدفة ، وأنه لا يوجد منذ القدم ، وإنما خلقه إله واحد ؛ إلا أن مهمة الخالق خلق الكون فحسب ، ولكنه لا يتدخل البتة بعد ذلك في شئون هذا الكون ، بل إن علاقته بالعالم في القوانين الطبيعية الثابتة غير المتغيرة التي تحكم المادة وتعبر عن إرادة الخالق وقدرته ، وأي تدخل من الخالق

يتنافى وقوانين الطبيعة وآلياتها ولذلك فلا حاجة إلى التدخل الإلهي ولا الوحي ولا الرسالات ولا المعجزات، وعقل الإنسان أداة كافية لإدراك قوانين الطبيعة والتوصل إلى الحقيقة الكامنة فيها ومن ضمنها أن لها خالقاً أوجدها.

وقد شبه الخالق بصانع الساعة يصنعها ثم يملؤها ويضبطها ويتركها بعد ذلك وشأنها تدور بكل دقة ، وهذا تشبيه (نيوتن) وعلى هذا فبإمكان المرء أن يؤمن بالخالق إن شاء كما يمكنه أن يتجاهله إن أراد فالخالق مجرد مصدر للحركة الآلية ولا علاقة له بحركة الحياة ولا بالمعارف الإنسانية(١) .

وهذا مع كونه في بادئ النظر إثبات للرب الخالق إلا أنه إنكار لملكه لخلقه ولتدبيره له فهو مورد للإلحاد في الربوبية ظاهر. وهذه الفكرة الإلحادية هي أحد الركائز التي تستند إليها العولمة

---

(١) أنظر العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ٢/٥١-٥٣ .

الفكرية التي تقود آليات العولمة الشاملة التي تعمل عدة هيئات ومراكز لتطبيقها في العالم[١].

و أصل هذه الرؤية فيما يبدو يعود إلى مقالة الفلاسفة التي سيأتي الكلام فيها إذ جعلوا الربوبية لما سموه بالعلة التامة التي يكون معلولها معها لا يتخلف عنها ، والعالم عندهم هومعلول العلة التامة ، ثم قالوا وعلته غير فاعلة فيه شيئاً ولا تعلم عنه شيئاً ، فالرب الذي يسمونه العلة لم يخلق العالم ابتداءً ، بل العالم معلول للرب وليس للرب فيه فعل ولا تدبير ولا علم له بما يجري فيه من حركات وأحوال ، وكل ما بين العلة التامة ومعلولها من صلة أنها مبدأ حركة معلولها ، كما سيأتي ذكره وبيانه.

وفيما يلي عرض لوجوه من الإلحاد في الربوبية وبيان بطلانها :

(١) أنظر مقالا كتبتُه بعنوان " هذه صورة للعولمة " ، نشره موقع الإسلام اليوم .

١- إلحاد من أنكر وجود الرب سبحانه :

وهو إلحاد الماديين من الماركسيين وهؤلاء أنكروا وجود خالق موجد للخلق ، وقالوا : الحياة مادة ولا يوجد شيء غير المادة ، وكل الأشياء والظواهر والكائنات المختلفة في العالم توحدها خاصية واحدة هي ماديتها ، ولا يوجد شيء خارج الطبيعة، وأي عالم غيبي غير موجود ولا يمكن أن يوجد ، وما يقوم في المخيلة الدينية للناس عن الخالق والكائنات العلوية ليس سوى انعكاس خيالي لوجودهم هم .

والمادة عندهم أزلية أبدية لا بداية لها ولا تفنى ، ولكنها تتحرك والحركة لازمة لها ولا تنفك عنها ، وعن هذه الحركة تنشأ التغيرات في المادة ، وهذه التغيرات يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً فيزيائياً (تحول المادة من حالة إلى حالة كتحول الماء من السيولة إلى التجمد) ، أو ارتباطاً كيميائياً (تحول المادة إلى مادة أخرى كتحول الورق بالاحتراق إلى رماد) أو ارتباطاً بيولوجياً

(التغير في الكائنات الحية كتغير جسم الإنسان في مراحل نموه) أو ارتباطاً وراثياً (انتقال صفات الكائن إلى آخر كالصفات التي يكتسبها الولد من والديه) أو ارتباطاً اجتماعياً (التغير في الحياة الاجتماعية كنشوء دولة وزوال أخرى)[١] ، وهذا هو الوجود ليس شيئاً غيره البتة ، لا موجد له، هو موجود أزلاً بلا بداية، وهو يتحرك ويتغير ويتطور من ذاته بلا نهاية .

وهذا الإلحاد ظاهر البطلان عقلاً وحساً وفطرة ،

أما ظهور بطلانه عقلاً وحساً :

فهو في الإلزام العقلي بين الوجود والعدم ، فيقال لهؤلاء : هل الأصل في المادة العدم أم الوجود ؟[٢].

---

(١) أنظر «موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ» لحمد العوايشة ١٢٣ – ١٥٨ و «الاتجاهات الفكرية المعاصرة وموقف الإسلام منها» لجمعة الخولي ١٧٩ – ١٨٠.

(٢) أنظر درءتعارض العقل والنقل ٣/٤٠٨- ٤١٩.

إن كان الأصل العدم ، فمعلوم أن العدم هو النفي المحض للذوات وصفاتها ، فكيف استطاع العدم أن يتحول إلى الوجود ؟!

وكيف يكون منه تحولات تتحول بنفسها إلى الوجود ؟! والتحول لا يكون إلا بقوة ، ومن أين القوة والأصل عدم ؟! .

يستحيل في العقول الصحيحة أن يتحول العدم بنفسه إلى الوجود أو أن يوجد العدم شيئاً .

وهذا ما قرره الله بقوله : ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾الطور: ٣٥ إذاً فالعدم لا يمكن أن يكون هو الأصل في المادة.

فهل الوجود هو الأصل ؟ ، لو كان الوجود هو الأصل لاستحال أصلاً أن يطرأ عليه عدم ، فالعدم نقيض الوجود وما كان الوجود أصلاً فيه فلا يتصور انتقاض أصله بعدم ، والى

هـذا المعـنى أشـار قـوله سـبحانه : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾الفرقان: ٥٨فما الحياة أصـل فيـه لا يلحقـه مـوت بحـال ، ونحن إذا نظرنا في الموجودات في الكون لوجدناها لم تكـن ثم كانـــــت ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ الإنسان: ١ ونشاهد في الموجودات تحولات تتجدد حيناً بعد حين من عدم لوجود ومن وجود لعدم ، فهـذا إنسـان يمـوت وآخـر يـولد ، وهـذه نبتـة تيـبس وأخـرى تنبـت وهكـذا ، وهـذه التغييرات لا تكون إلا بأسباب مؤثرة لا تنشأ لشيء مـن ذاتـه وحده ، فلـو كان الأصـل في هـذه الموجـودات هـو الوجـود لم تكن عرضة للعدم والتغير مـن حال إلى نقيضـه ، ولم تحتج في وجودهـا إلى أسـباب مـؤثرة فـلا يكـون الوجـود أصـلاً لهـا بحال[1] .

(١) أنظر درءتعارض العقل والنقل ٤٠٨/٣- ٤١٩ ، و«موقف الإسلام من نظرية

فإذا لم يكن العدم أصلاً للمادة وإلا لم توجد بحال وليس الوجود أصلاً لها وإلا لم يلحقها عدم بحال لزم عقلاً أن يكون لها موجد أو جدها من عدم وأجرى فيها الأسباب المؤثرة في تغيراتها .
فبطل قولهم بقدم المادة وحركتها عقلاً وحساً .

ولا نجد جواباً عندهم على هذا الإلزام العقلي إلا بقولين يقولونهما:

١- الادعاء أن أصل الحياة لا يزال غامضاً ولم يتوصل العلم إلى معرفته بعد.

٢- قطع الكلام في الأمر والحكم بأنه لا يجوز السؤال عمن أوجد المادة[1] .

ماركس» ٢٦٩ – ٢٧١ .

(١) أنظر «موقف الإسلام من نظرية ماركس» ٢٦٩ – ٢٧١ .

والأول ينقض عليهم مذهبهم ونقول : انتظروا حتى يتوصل العلم إلى عقيدة تعتقدونها ، والثاني تحكم سامج وانقطاع معلن .

أما ظهور بطلانه فطرة :

فلأنه ظهرت في أقوالهم والمرويات عن سلوكهم منازعة الفطرة لدعواهم الملحدة وذلك في وجوه :

١- ردهم الوجود إلى المادة وحركتها ، وهذا رد إلى موجد مدبر عند التحقيق ، ثم إن هذا الموجد المدبر الذي سموه هم المادة هو عند تحقيق النظر في قولهم غيب غير مشاهد ، لأنهم لم يعينوا المادة التي يعلقون عليها اعتقادهم بعينها ، ولم يعرفوها بما يميزها ، فليست شيئاً ظاهراً مشاهداً ، بل إنهم يحيلون إلى معنى عام لم يعينوه في الخارج مع تصريحهم بوجوده خارج الذهن ترى آثاره في الخارج لا عينه .

وهذا أوفق مع الفطرة من مراداتهم ، لأن المركوز في الفطرة الإيمان برب موجود تُرى آياته ويُعرف بها ولا ترى ذاته في الدنيا .

٢- ادعاؤهم أن أصل الحياة لا يزال غامضاً ومنعهم السؤال عمن أوجد المادة ومن أكسبها الحركة هو من منازعة الفطرة التي لا يستطيعون التحرر من قيدها ولا الخروج عن سلطانها فيحيدون إلى مثل هذا .

٣- المتداول المشهور في الرواية عن أحد رؤوس هذا المذهب من أنه تعثر يوماً فرفع رأسه إلى العلو وهتف بلغته : يا إلهي .

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري في سياق كلامه عن المنكرين لوجود الخالق وكوامن عباراتهم : «فالإله الخفي يجعلهم يدركون أن الانتصارات التي تحققها حضاراتهم باسم الإنسان الطبيعي المادي تؤدي إلى وأد شيء مهم جداً في الإنسان ، شيء لصيق بالإنسانية ، نسميه (القبس الإلهي) ولكنهم لا

يسمونه وإنما يدورون حوله ، ويتجلى بشكل خفي في كتاباتهم ويعذبهم ويؤرقهم ، ولذا فانه يصدق نعته بأنه (الإله الخفي) » ويقول : «قد لوحظ أن الإنسان مهما بلغ من إلحاد ومادية فإنه لا يقبل المادة المتغيرة إطاراً مرجعياً ، وإنما يبحث عن مركز للعالم ، وعن إطار وعن أرض ثابتة يقف عليها وعن كليات تتجاوز الأجزاء ، وقد أدرك (نيتشه) أن هذا تعبير عن الإله الخفي ، واختار مصطلح «ظلال الإله» ليشير إليه»[١] .

٢- إلحاد القائلين بقدم العالم :

وهو إلحاد الفلاسفة ، وقد اتفق الفلاسفة على أن الرب (علَّة) والعلة عندهم : ما يتوقف عليه وجود معلولها[٢] ، وأن الوجود

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ١٩٢/١، و(نيتشه) فيلسوف ألماني، ت:١٩٠٠م.

(٢) أنظر التعريفات للجرجاني ١٥٤ .

هو معلول هذه العلة ، لكنهم باتفاق يقولـون : إنـه (علـة تامـة) أي : يجب وجود معلولها عندها[1] ومعها لا يتخلف عنها بحال كما لا يتخلف ضوء الشمس عن الشمس ، وقالوا : هو علة تامة قديمة أزلية لا أول لها ومعلولها معها قديم لا أول له ،فقالوا بقدم الوجود وأنه أزلي لا أول له . وهذا يمنع أن يكون للرب على خلقه إحداث وإيجاد ، فلا خلق ولا إيجاد ، هذا ما اتفقوا عليه أولهم وآخرهم وإن اختلفت عباراتهم ، ثم إنهـم اختلفـوا في نوع العلة الرابطة بين العلة التامة ومعلولها أي في وجه العلاقـة بينهما .

فقال الأقدمون ، أرسطو وأتباعه : إن العالم قديم بنفسه واجب الوجود بنفسه ليس له صانع ، وعلته غير فاعلة فيه شيئاً ولا تعلم عنه شيئاً ، فالرب الذي يسمونه العلة لم يخلق العالم ابتداءً بل العالم معلول للرب وليس للرب فيه فعل ولا تـدبير ولا علم

(١) المصدر السابق .

له بما يجري فيه من حركات وأحوال ، وكل ما بين العلة التامة ومعلولها من صلة أنها مبدأ حركة معلولها ، وحتى هذه الحركة ليست فعلاً من العلة التامة في العالم ، ولكنها حركة شوقية ، أي أنها من قبيل الدفع الذاتي الذي يحاول به العالم القرب من صورة العلة التامة والتشبه بها قدر الإمكان .

وحجته في ذلك أن العالم فيه علة مادية وهي وجود الشيء بالقوة، بمعنى أنه لا ابتداء له ، ثم إن خروج المادة من القوة إلى الفعل وهو (الحركة) لا ابتداء له ، ممتنع أن يكون لحركة المادة ابتداء ، ومقدار الحركة وهو (الزمان) لا ابتداء له ، ممتنع أن يكون للزمان ابتداء ، و(الحركة) و(الزمان) هما صورة وجود المادة. فما دامت المادة قديمة لا أول لها ، وصورتها التي يجب

أن توجد بها قديمة لا أول لها ، فالعالم قديم بنفسه أزلي لا أول له ، وحركته ذاتية لا مؤثر عليها من خارجها[1].

وبطلان هذا القول ظاهر ، فانه قول لا يدل على قدم شيء من الحركات وزمانها بعينه ولا من المتحركات بعينه ، فلا تدل على مطلوبهم وهو إثبات قدم العالم وحركته وزمانه ، بل الدليل منقلب عليهم ، وذلك أن الحركة لا بد لها من محرك ، فجميع الحركات تنتهي إلى محرك أول ، وهم يسلمون هذا[2] ، ثم ذلك المحرك الأول الذي صدر عنه حركة ما سواه إما أن يكون متحركاً وإما أن لا يكون متحركاً ، فان لم يكن متحركاً لزم صدور الحركة عن غير متحرك ، وهذا مخالف للحس والعقل ، فان المعلول يجب أن يكون مناسباً لعلته فإذا كان المعلول

(١) أنظر الملل والنحل : (رأي أرسطو ، المسألة الأولى والثانية والحادية عشر والثانية عشر) والفتاوى ٦ / ٣٣٣ - ٣٣٦ ، وشرح النونية للهراس ٤٤/٢ -٤٥.

(٢) أنظر الملل والنحل : (رأي أرسطو ،المسألة السادسة)

يحدث شيئاً بعد شيء امتنع أن تكون علته باقية على حال واحدة ، فرجع قولهم إلى قدم نوع الحركة لا أعيانها[1] . فيتحصل من هذا أن المحرك الأول يقوم نوع الحركة بذاته ، فنوع حركته قديم بقدم ذاته ، ثم أعيان حركته ومفرداتها تتجدد ، ويكون كل ما سواه حادثاً بعد أن لم يكن ، وأول حدوثه عند صدور عين حركة إحداثه من المحرك الأول .

وموضع غلط هؤلاء هو عدم تفريقهم بين نوع الفعل القائم بذات الرب وبين عين الفعل المتجدد. وبالتفريق بينهما يظهر الحق . فإن كل باطل فمرجعه إلى واحد من أصلين : إما التسوية بين المختلفات ، أو التفرقة بين المتماثلات ، وإبطال كل باطل يكون برده إلى الأصل ، إما التفرقة بين المختلفات ، أو التسوية بين المتماثلات .

---

(١) أنظر الفتاوى ٦ / ٣٣٦ – ٣٣٧ .

وأما متأخروا الفلاسفة ، ابن سينا وأمثاله : فيثبتون للعلة التامة الفاعلية في معلولها ، فيقولون : إن العالم قديم عن علة فاعلية ، ولكن لما كانت العلة تامة يجب لزوم معلولها عنها امتنع عليها أن تكون فاعلة بعد أن لم تكن ، وعليه فيكون معلولها مقارناً لها ، فيكون المفعول مقارناً لفاعله في وجوده لا يتأخر عنه ، فمادام لا أول للفاعل فلا أول لمفعوله فالعالم المعلول للرب قديم لا أول له وإن كان مفعولاً له[(١)] .

وبطلان هذا ظاهر في صريح العقل ، فان صريح العقل قاضٍ بأنه لا بد أن يتقدم الفاعل على فعله ، والفاعل إنما كان فاعلاً لأنه يفعل شيئاً فيحدثه ، فيمتنع أن يكون المفعول مقارناً للفاعل، فيمتنع أن يكون في مفعولات الرب شيء قديم بقدمه،فيكون كل ما سواه محدث .

---

(١) أنظر الملل والنحل : (قول ابن سينا ، المسألة الثالثة والرابعة) ج٢ ص ١٦٥ – ١٦٧ ، الفتاوى ٦ / ٣٣٤ .

ثم إنه يلزم على قولهم ألا يحدث في العالم حادث ، وهو خلاف المشاهد المحسوس ، فبطل قولهم بمقتضى الحس والعقل[1] .

٣- إلحاد القائلين بوحدة الوجود :

وهو قول الاتحادية ، متكلمة الصوفية الغلاة ، وهؤلاء ليس لديهم رب ومربوب ، فقد اتفقوا على أن وجود المخلوقات هو عين وجود الرب ليس شيئاً غيره البتة ، والقول بوجود رب ومربوب عين الشرك عندهم، بل الوجود وحدة واحدة ليس فيه شيء غير الحق سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وهذا مذهب يقول فيه ابن تيمية رحمه الله وقوله حق: «اعلم هداك الله وأرشدك أن تصور مذهب هؤلاء كاف في بيان فساده ، لا يحتاج مع حسن التصور إلى دليل آخر ، وإنما تقع الشبهة لأن أكثر الناس لا يفهمون حقيقة قولهم وقصدهم لما فيه

(١) أنظر الفتاوى ٦ / ٣٣٤ ، ٣٣٥ .

من الألفاظ المجملة والمشتركة ، بل وهم أيضاً لا يفهمون حقيقة ما يقصدونه ويقولونه ، ولهذا يتناقضون كثيراً في قولهم ، وإنما ينتحلون شيئاً ويقولونه أو يتبعونه . ولهذا قد افترقوا بينهم على فرق ، لا يهتدون إلى التمييز بين قولهم ، مع استشعارهم أنهم مفترقون»[(١)] .

وهذا المذهب يبطله المشهود في الكائنات من التفرق والكثرة التي تنافي الوحدة التي يدعونها ، وهم يشهدون هذا التفرق في أجناس الموجودات وأنواعها وأفراد كل نوع وكثرة ذلك وتكثُّر أفراد كثير من أنواع الموجودات ، ولا يمكنهم إنكار ذلك ولم ينكروه ، ولكنهم لتقرير قولهم ذهبوا يطلبون جمعاً يزيل الكثرة ووحدة تزيل التفرق ، فاضطربوا في ذلك إلى ثلاث مقالات ، تتبعها ابن تيمية رحمه الله وأحصاها وبين كل واحدة منها

---

(١) الفتاوى ٢ / ١٣٨ .

وكشف وجه باطلها[1] ، وخلاصة ما قرره رحمه الله مع شيء من البيان ما يلي :

أولاً : مقالة ابن عربي[2] ، وهي مبنية على أصلين :

١- أن المعدوم شيء ثابت في العدم ووجود الحق فاض عليه .

٢- أن وجود الأعيان هو نفس وجود الحق وعينه ، لأن الحق ظهر في الأعيان الثابتة نفسها ، فهو لايتحقق وجوده إلا بها ، ولا تتحقق ماهيتها إلا به .

فالوجود واحد ليس ههنا وجودان أحدهما واجب بنفسه والآخر بغيره ،بل وجود الأعيان في العدم هو وجود الحق

---

(١) الفتاوى ٢ / ١٤٢ – ١٧٠ .

(٢) هو محمد بن علي ، محي الدين ، الملقب بالشيخ الأكبر ، هو قدوة أهل الوحدة ، أندلسي ، أنكر عليه أهل مصر شطحاته وسعوا في إراقة دمه ، استقر في دمشق وتوفي بها . قال العز بن عبد السلام فيه «شيخ سوء كذاب يقول بقدم العالم ولا يحرم فرجاً» قال الذهبي : «من أردأ تواليفه كتاب "الفصوص" فان كان لا كفر فيه فما في الدنيا كفر» ت: ٦٣٨هـ . أنظر سير أعلام النبلاء ٤٨/٢٣ .

عينه ، وتحقق ماهيتها هو ظهوره فيها،فكل واحد منهما مفتقر للآخر ومشروط به كالمادة والصورة[(١)] .

فقال بالجمع من حيث الوجود ، وبالفرق من حيث الأعيان ، لأن الحق لم يعطها إلا ما كانت عليه في العدم كما زعم.

وهذا باطل لأن المعدوم ليس بشـيء ، لا وجود له ، والعدم نفي محض لا يثبت فيه شيء البتة ، قال الله : ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ مريم: ٩ وفي الحديث : «كان الله ولم يكن شيء قبله»[(٢)] وفيه : «كان الله ولم يكن شيء غيره»[(٣)] .

ولكن يبدو أن الشبهة دخلت على هذا القول من حيث أنهم رأوا أن الله يعلم الشيء قبل كونه ، وان أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فالمعدوم الذي يخلقه الله بعد أن لم يكن

---

(١) أنظر درء التعارض ١٦٣/٦.

(٢) أخرجه البخاري ، أنظره مع الفتح ٤٠٣/١٣ رقم ٧٤١٨ .

(٣) أخرجه البخاري ، أنظره مع الفتح ٦ /٢٨٦ ح ٣١٩٠.

متمـيز في علمـه وإرادتـه وقدرتـه فظنـوا أن ذلك لتمـيز ذات للمعدوم ثابتة ، فصار منشأ الغلط أنهم لم يفرقـوا بـين الوجـود العلمي للمعدوم وبين الوجود العيـني له ، مع الفـرق بينهما فانـه يكـون في العـلم مـا لا يوجـد عينـه كالممتنعـات والمسـتقبلات المتيقنة الوقوع ولم تقع بعد كالـنفخ في الصـور ونحـوه فمثل هـذا ثابت موجود في العلم لكنه لا يقع عينه إن كان ممتنعـاً ، أو يقع بعـد أن لم يكـن إن كان متحقـق الوقـوع ، ففـرق بـين ثبـوت الشـيء ووجوده في العلم وبين ثبوتـه ووجـوده نفسـه ، فالعـالم يعلم الشـيء ويتكلم به ويكتبه وليس لذاته في الخارج ثبوت ولا وجود أصلاً .

ثانياً : مقالة الصدر الرومي[1] : وهي مبنية على التفريق بين التعيين والإطلاق ، فالرب عنده هو الوجود المطلق الساري في الموجودات المعينة ، وهو لا يتعين ولا يتميز حال الإطلاق فإذا تعين وتميز فهو الخلق ، سواءً تعين في مرتبة الإلهية أو غيرها .

فقال بالجمع من حيث الإطلاق ، وبالفرق من حيث التعيين . وهذا أكفر من قول ابن عربي لأن قول ابن عربي يحتمل اعترافاً بوجود الخالق القائم بنفسه ، لأنه جعل للحق وجوداً فاض على أعيان الموجودات ولكن كفره في جعله المخلوق هو الخالق، بل لم يثبت خلقاً أصلاً، ولم يجعل للرب وجوداً متميزاً عن وجود خلقه .

---

(١) هو محمد بن إسحاق بن محمد ، صدر الدين القونوي الرومي ، من كبار تلاميذ ابن عربي وكان ابن عربي تزوج أمه ورباه . ت ٦٧٣هـ . أنظر طبقات الشافعية للسبكي ١٩/٥ .

وبطـلان مقـالة ابـن الـرومي ظـاهرة ، فـان المطلـق بشرـط الإطـلاق الذي لا يتعـين بوصـف ولا بلفـظ يخصصـه لـيس له وجود في الخارج ، فليس في الخارج -مثلاً- : إنسان مطلق بلا قيد بـل لا بـد أن يتعـين بزيـد أو عمـرو ، إذ لـكل موجـود في الخـارج حقيقـة يتمـيز بهـا ، ومـا لا حقيقـة له يتمـيز بهـا فلـيس بشيء. فإذا كان ذلك كذلك فعلى مقالة ابـن الـرومي هـذه لا وجود للحق أصلاً ، فكيف يكون وجود المخلوقات هو وجـود ما لا وجود له ؟!

والفـرق بـين مقـالة هـذا ومقـالة ابـن عـربي ، أن هـذا جعـل المظاهر في المتعينات الموجودة وذاك جعلها في الأعيـان الثابتـة في العدم .

ثالثاً : مقالة التلمساني[١] : وهي مبنية على نفي الفرق بين شيء ، لا بين الوجود وبين العدم ، ولا بين المطلق وبين المعين، ولا بين شيء البتة ، فليس عنده سوى ولا غير ولا تفرقة بوجه من الوجوه، وإنما الكائنات أجزاء منه وأبعاض له، بمنزلة أمواج البحر في البحر ، وأجزاء البيت من البيت .

فليس عنده إلا الجمع أما التفرقة فلا محل لها عنده إلا في ذهن الإنسان المحجوب عن شهود الحقيقة فإذا انكشف غطاؤه عاين أنه لم يكن غير ، وأن الرائي عين المرئي ، والشاهد عين المشهود ، وهذا القول أشد جهلاً وكفراً بالله . نسأل الله السلامة من الضلال .

(١) هو سليمان بن علي ، عفيف الدين ، شرح فصوص ابن عربي ومنازل السائرين للهروي، واتُهم بالميل إلى مذهب النصيرية ت ٦٩٠هـ . أنظر شذرات الذهب ٤١٢/٥ .

هذا ومما قد يلحق بالقول بوحدة الوجود في عصـرنا الحاضر مايسمى بـ «البرمجة اللغوية العصبية» والمقصود به الممارسات التي تحقق الارتباط بالعقل الباطن والاتحاد معه ، كإغماض العينـين والاسـترخاء والعـيش في الفـراغ ونحـوه ممـا يسـمى بالرياضات الروحية ، والعقل الباطن وهو المطلق اللا متناهي الذي له القـدرة عـلى حـل كل مشـاكل الإنسـان وعـلاج كل أمراضه ، هو الذي يجعله سعيداً أو شقياً ، غنياً أو فقيراً ، هو الذي يشفيه من مرضه ويغنيه من فقره، وشعار ذلك عنـدهم : «أنا أتحكم في عقلي ، إذاً أنا مسؤول عن أفعالي» وسر المسألة في هذا أن الكائنات كلها روح واحـدة هي الـروح المطلقـة غير المتناهية التي تتصرف في الحياة ، هي الإله المتحكم والمتصرف في حيـاة الإنسـان ، والإنسـان غافـل عـن ذلك ومشـغول بملاحظة الأسباب والوسـائل المباشرة، فـإذا رجع إلى الحقيقة واتحد بالمطلق المتناهي الكامن في عقله البـاطن اسـتغنى بـذلك

عن كل الوسائل وصار المتصرف في حياته . ويعترف مؤسسو البرمجة اللغوية العصبية بأنها قائمة على مذهب وحدة الوجود وفكرة الاتحاد والحلول[1] .

وهكذا الباطل المداحض للحق يلبس لكل عصر لباسه ، ويتلوَّن لكل جيل بما يناسبه والأصل واحد .

وهذه الوجوه الثلاثة المذكورة من وجوه الإلحاد في الربوبية هي أشد الوجوه بطلاناً وأسوأها قولاً لأن فيها إنكار الرب أصلاً . ثم بقية وجوه الإلحاد في الربوبية فيها إثبات الربوبية ولكن بنحلها لغير الله كقول فرعون: «أنا ربكم الأعلى» فادعاها ونحلها نفسه، أو بنحل شيء منها وبعض خصائصها لغير الله كمن ادعى علم الغيب وهو رأس من رؤوس الطواغيت ، وكمن ينسب إلى النجوم والأنواء التصرف في الأحوال الجوية ، والى الطوالع

---

(١) أنظر فلسفة الماكروبيوتيك ، للدكتورة : نجاح الظهار ص ١٩١.

والأبراج تقدير الحظ والنصيب، والى أصحاب القبور هبة الولد والمدد ، والى التمائم والأحراز تقدير الشفاء والحفظ .

والقول الجامع أن كل تنقيص من حظ الربوبية إلحاد مفارق للإيمان مناقض لأصله .

نسأل الله اليقين والثبات ، ونعوذ به أن نشرك به شيئاً ونحن نعلم ونستغفره مما لا نعلم . والحمد لله أولاً وآخراً لا شريك.

الفهرس

- أصول الربوبية الثلاثة ....
- عموم الربوبية وخصوصها...

المبحث الثاني:(دليلا الربوبية وشواهدهما).....(   )

١- الفطرة ....

شواهد تقرردلالة الفطرة..

٢- الآيات ....

إبطال طريقة المتكلمين في الاستدلال بالآيات

شواهد تقرر دلالة الآيات..

المبحث الثالث:(أحكام الربوبية)...................................(   )

المبحث الرابع :(منزلة توحيد الربوبية).............................(   )

أولاً : منزلته من الملة ....

ثانياً : منزلته من الدعوة إلى الملة ....

ثالثاً : عدم كفايته في حصول التوحيد.......................

المبحث الخامس:(إبطال الإلحاد في الربوبية)........(   )

- مورد الإلحاد في الربوبية..

إلحاد منكري الربوبية..

إلحاد القائلين بقدم العالم...